تفسير سورة السجدة

(الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)) .

[السجدة : ١ – ٣] .

(**الم**) هذه من الحروف المقطعة التي تكون في أول بعض السور .

- **قال ابن عاشور** : افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن لأنه جامع الهدى الذي تضمنته هذه السورة وغيرها ولأن جماع ضلال الضالّين هو التكذيب بهذا الكتاب ، فالله جعل القرآن هدى للناس وخصّ العرب أن شَرفهم بجعلهم أولَ من يتلقّى هذا الكتاب ، وبأنْ أنزله بلغتهم ، فكان منهم أشد المكذبين بما جاء به ، لا جرم أن تكذيب أولئك المكذبين أعرق في الضلالة وأوغل في أفَن الرأي.

وافتتاح الكلام بالجملة الاسمية لدلالتها على الدَوام والثبات.

وقد اختلف العلماء في الحروف المقطعة التي وردت في أوائل بعض السور على أقوال كثيرة :

فقيل : لها معنى ، واختلف في معناها : **فبعض العلماء** : **قال** هي أسماء للسور ، **وبعضهم قال** : هي أسماء لله ، وبعضهم قال غير ذلك .

وقيل : هي حروف هجائية ليس لها معنى ، **ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين وقال** : " وحجة هذا القول : أن القرآن نزل بلغة العرب ، وهذه الحروف ليس لها معنى في اللغة العربية " .

وأما الحكمة منها : فأرجح الأقوال أنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم ، **ورجح هذا القول ابن كثير في تفسيره فقال** :

" وقال آخرون إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين ، وإليه ذهب الشيخ أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية " .

[تفسير ابن كثير : ١ / ٥١] .

وقد رجح هذا الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان حيث قال بعد أن ذكر الخلاف : " أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو : أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله .... **ثم قال رحمه الله** : ووجه استقراء القرآن لهذا القول : أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وأنه حق ، قال تعالى في البقرة (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) ، وقال في آل عمران (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) ، وقال في الأعراف (ألمص كتاب أنزل إليك) ، وقال في يونس (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) ، وقال في هود (الر كتاب أحكمت آياته ..) ، وقال في يوسف (الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً) " .

ثم ذكر رحمه الله بقية السور .

ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقال بعدما رجح هذا القول : " ... أن هذا القرآن لم يأت بكلمات ، أو

بحروف خارجة عن نطاق البشر ، وإنما هي من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر ، ومع ذلك فقد أعجزهم " .

- **وأما قول** من قال إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور ، **فهذا ضعيف** ، لأن الفصل حاصل بدونها .
- **وقول من قال** : بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين إذا تواصوا بالإعراض عن القرآن إذا تلا عليهم ، وهذا ضعيف ، لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها . **[تفسير ابن كثير : ١ / ٥١]** .
- عدد الحروف المقطعة (١٤) حرفاً يجمعها قولهم : نص حكيم قاطع له سر .
- افتتح الله عز وجل (٢٩) سورة بالحروف المقطعة .

(**تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**) أي هذا الكتاب وهو القرآن الموفى به إليك يا محمد لا شك ولا ريب أنه من عند الله الذي هو رب العالمين وخالقهم ومدبرهم .

- (**تنزيل الكتاب**) أن من أسماء القرآن الكتاب ، وسمي بذلك لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) أي اللوح المحفوظ ، وهو كتاب في الصحف التي بأيدي الملائكة قال تعالى (فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) ، وهو كتاب في الصحف التي بأيدينا ، فهو مكتوب بأيدينا ونقرؤه من هذه الكتب .
- فيه اسم من أسماء القرآن وهو الكتاب ، **ومن أسماء القرآن** :

الاسم الأول : الفرقان ، كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ، وقال تعالى (وأنزل الفرقان) .

وسمي بذلك : **قيل** : لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، **وقيل** : لأنه نزل متفرقاً في حين أن سائر الكتب نزلت جملة واحدة ، **وقيل** : الفرقان هو النجاة ، وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات فبالقرآن وجدوا النجاة . [مفاتيح الغيب: ١٤/٢]

وكل هذه الأقوال صحيحة .

الاسم الثاني : القرآن ، كما قال تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) ، وقال تعالى (لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

الاسم الثالث : الكتاب ، كما في قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) ، وقوله تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) ، وسبق لماذا سمي بذلك .

الاسم الرابع : الذكر ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) .

قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر : إنه محتمل معنيين :

أحدهما : أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه .

والآخر : أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك ، يعني أنه شرف به شرف له ولقومه .

قوله تعالى (**لا ريب فيه**) الريب هو الشك مع القلق فهو أخص من الشك .

فالقرآن لا شك ولا ريب أنه موحى من عند الله ، كما قال تعالى (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) .

والقرآن لا شك أنه يبعث على عدم الريب والشك .

والقرآن لا شك ولا ريب أنه واقع موقعه .

والقرآن لا يتضمن أموراً تبعث على الريب والشك .

والقرآن لا يوجد فيه متناقضات .

والقرآن لا ريب فيه وإن ارتاب فيه المرتابون .

- نفي الريب عن القرآن ، وهذا النفي متضمن ثبوت كمال ضده ، وهو أنه مشتمل على كمال اليقين .
- **قال الشيخ السعدي** : لا ريب فيه : ونفي الريب عنه يستلزم ضده ، إذ ضد الريب والشك اليقين ، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين ، المزيل للشك والريب ، وهذه قاعدة مفيدة : أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال ، لأن النفي عدم ، والعدم المحض لا مدح فيه .

(**رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

- **قال السعدي** : وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة :

فالعامة : هي خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه ، وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .

- **العالمين** : اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال :

قيل : كل موجود سوى الله ، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير .

وقيل : أهل كل زمان عالم لقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) أي من الناس .

وقيل : الجن والإنس ، لقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيراً) .

وقيل : العالَم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين .

والصحيح الأول ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما) .

- **العالمين** : **جمع عالَم** :

قيل : مأخوذ من العَلامة ، لأنهم عَلَمٌ على خالقِهم وصانعهم ، وهذا هو الصحيح

فإن هذا الخلق في كل فرد منه ، وفي جزء منه ، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمته وعلى انفراده بالملك .

قال الشاعر :

فوا عجبا كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحد الجاحدُ

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحدُ

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال : إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير .

جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول .

وقيل : مأخوذ من العِلم ، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم .

- **العالمين** : تطلق أحياناً ويراد به الإنس والجن :

كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وأحياناً تطلق على البشر :

كقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) .

- قال بعض العلماء : واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره ، وبيانه من وجوه :

الأول : أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه ، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم .

الثاني : أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله وهو متعال عن النقصان والضرر ، كما قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) .

الثالث : أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه ، والحق تعالى بخلاف ذلك ، كما قال ﷺ : (إن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء) .

الرابع : أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط ، أما الحق تعالى فإنه يعطي قبل السؤال ، ألا ترى أنه رباك حال كنت جنيناً في رحم الأم ، وحال ما كنت جاهلاً غير عاقل ، لا تحسن أن تسأل منه ، ووقاك وأحسن إليك مع أنك ما سألته وما كان لك عقل ولا هداية .

الخامس : أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغيبة أو الموت ، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة .

السادس : أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم ، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل ، كما قال : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

فثبت تعالى أنه رب العالمين ومحسن إلى الخلائق أجمعين ، فلهذا قال تعالى في حق نفسه : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**) يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم قالوا أن محمداً اختلقه من تلقاء نفسه .

- **قال السعدي** : قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك : افتراه محمد ، واختلقه من عند نفسه ، وهذا من كبر الجراءة على إنكار كلام الله ، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب .

قال تعالى راداً على من قال افتراه :

(**بَلْ هُوَ الْحَقُّ**) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

(**مِن رَّبِّكَ**) أنزله رحمة للعباد .

(**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ**) أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد .

والإنذار : الإخبار المقرون بالتخويف .

قال الماوردي : قوله تعالى (لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ) يعني قريشاً ، قاله قتادة : كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ . أ هـ {النكت والعيون حـ ٤ صـ}

(**لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**) أي يتبعون الحق ويؤثرونه .

الفوائد :

١- بيان إعجاز القرآن ، حيث أن القرآن يكون من هذه الحروف المقطعة [الم ، ق ، ص] ومع ذلك يتحدى القرآن أن يأتوا بمثله .

٢- الثناء على القرآن .

٣- أن القرآن منزل غير مخلوق ، لقوله : (تنزيل) .

٤- إثبات علو الله بذاته ، لقوله : (تنزيل) . [وقد سبقت أدلة العلو في سورة البقرة] .

٥- إثبات اسم من أسماء القرآن ، وهو الكتاب .

٦- الثناء على القرآن بأنه لا ريب ولا شك فيه بوجه من الوجوه .

٧- وجوب تعظيم القرآن .

٨- الرد على من قال إن محمداً افترى هذا القرآن ، حيث ذكر الله أموراً تدل على كذبهم :

قوله تعالى : (هو الحق) على كل الوجوه .

(من ربك) من رب العالمين .

(لا ريب فيه) بوجه من الوجوه ، فليس فيه ما يوجب الريبة .

٩- أن مهمة الرسل الإنذار والتبشير .

قال تعالى : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) .

وقال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) .

١٠- أنه ما من أمة إلا وجاءها نذير ، كما قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

١١- أن مهمة الرسل البلاغ ، والهداية بيد الله .

١٢- أن النذارة سبب للهداية .

١٣- إثبات رحمة الله للخلق ، حيث أرسل إليهم الرسل من أجل هدايتهم .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤))

[السجدة : ٤] .

(**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**) أي أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان .

وما بينهما : يعني بين السماء والأرض ، وهذه المخلوقات منها ما هو معلوم لنا كالشمس والقمر والنجوم والسحاب ، ومنها ما هو مجهول إلى الآن .

(**في ستة أيام**) أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

قال ابن عطية : وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد ، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء .

قال القرطبي : قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.

- **وقد اختلف في مقدار هذه الأيام :**

فقيل : كأيامنا هذه .

لأن الله أطلقها ، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه .

وقيل : كل يوم مقدار خمسين ألف سنة .

وقيل : المراد باليوم لحظة .

والراجح الأول .

- **فإن قيل : أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة ؟**

فالجواب : بلى ، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

فمن المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء ، وقدرته سبحانه ليس لها حدود ، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة ، ومنتهى الأمر والقضاء ، وإذا أراد شيئاً كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد ، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض .

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يبين بذلك تعالى كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن ــ أي : مرة واحدة ــ فيكون ، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

وقال تعالى (...قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية (٢٦١/٤) : (وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى توكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قولة فيكون) أ.هـ.

وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين :

الحكمة الأولى : أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض ، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها .

الحكمة الثانية : أن الله علم عباده التؤدة والتأني ، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه .

– هذه الأيام أربعة منها للأرض ، ويومان للماء ، كما فصل ذلك في سورة فصلت : (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) .

- قال الإمام القرطبي : وذكر هذه المدة – أي ستة أيام – ولو أراد خلقها في لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون ، ولكنه أراد:
  - أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.
  - ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء....
  - وحكمة أخرى : خلقها في ستة أيام ؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب ؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ...) .
- **وقال ابن الجوزي** : فإن قيل : فهلا خلقها في لحظة ، فإنه قادر ؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها : أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده ، ذكره ابن الأنباري.

والثاني : أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده ، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث : أن التعجيل أبلغ في القدرة ، والتثبيت أبلغ في الحكمة ، فأراد إظهار حكمته في ذلك ، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون) .

والرابع : أنه علّم عباده التثبت ، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس : أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء ، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق .) ا.هـ.

- **وقال القاضي أبو السعود** (... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار ، واعتبار للنظار ، وحث على التأني في الأمور) ا.هـ.
- فإن قيل : ما الجواب : عن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ وَفِى آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْل) رواه مسلم .

فإنه يقتضي أن الأيام سبعة .

فالجواب : أن المحققين من العلماء على تضعيفه .

لمخالفته ظاهر القرآن الكريم ، الذي يصرح بأن خلق السماوات والأرض وما فيهما تم في ستة أيام : يومان للسماء ، وأربعة أيام للأرض وما فيها ، كما قال تعالى (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم) .

وممن ضعفه : علي بن المديني ، والبخاري ، ويحي بن معين ، وعبد الرحمن بن مهدي ، والبيهقي ، وابن تيمية ، وابن القيم .

قال الإمام البخاري رحمه الله "وقال بعضهم : عن أبي هريرة عن كعب ، وهو أصح . (التاريخ الكبير) .

وقال ابن تيمية : وكذلك روى مسلم : (خلق الله التربة يوم السبت) ، ونازعه فيه من هو أعلم منه ، كيحيى بن معين ، والبخاري ، وغيرهما ، فبينوا أن هذا غلط ، ليس هذا من كلام النبي ﷺ ، والحجة مع هؤلاء ، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن آخر ما خلقه هو آدم ، وكان خلقه يوم الجمعة ، وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أنه خلق ذلك في الأيام السبعة ، وقد رُوي إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد " انتهى من " مجموع الفتاوى " (٢٥٦/١) ، وانظر: " مجموع الفتاوى " (١٨/ ٧٣)

- **فائدة :**

قال الشنقيطي : الظاهر أن معنى قوله هنا في (أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) : أي : في تتمة أربعة أيام.

وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط ؛ لأنه تعالى قال : (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ) فصلت/ ٩ ، ثم قال (في أربعة أيام) أي : في تتمة أربعة أيام.

ثم قال : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) ، فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما ستة أيام.

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال ؛ لأن الله تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام. ...

وقال البغوي : (في أربعة أيام) يريد خلق ما في الأرض ، وقدر الأقوات في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع الأحد والاثنين أربعة أيام ، ردَّ الآخر على الأول في الذكر ، كما تقول : تزوجت أمس امرأة واليوم ثنتين ، وإحداهما هي التي تزوجتها بالأمس.

(**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) أي علا وارتفع على العرش ، وأما كيفية ذلك فالله أعلم بكيفيته .

- **والعرش** : ذلك السقف المحيط بالمخلوقات ، وهو من أعظم المخلوقات .
- وفي الآية إثبات العرش .

والعرش : لغة عبارة عن السرير الذي للملك ، سمي عرشاً لارتفاعه عليه

وشرعاً : هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف هذه المخلوقات ، **وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة** .

وصفه بالعظمة :

قال تعالى (ورب العرش العظيم) .

ووصفه بأنه كريم :

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم) .

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش :

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش) .

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة :

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...) .

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض :

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) .

وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس :

قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن) .

وله قوائم :

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

- في هذه الآيات إثبات أن الله مستو على عرشه ، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة ، استواء يليق بجلاله من غير تكييف .

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن .

وقد فسر أهل التعطيل الاستواء بمعنى الاستيلاء ، واستدلوا بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو درهم راق

لكن هذا البيت لا يعرف قائله .

(**مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ** أي ليس لكم أيها الناس من غير الله من ولي .

- والولي : من يتولى أمر الإنسان بجلب الخير ودفع الشر .

وإذا قرنت بالنصر صارت خاصة بجلب الخير .

- والنصر يدفع الشر .

(**ولا شفيع**) يشفع لكم أن توجه إليكم العقاب .

والشفاعة : هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

- **قال ابن عاشور** : والشفيع : الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضرّ أو جلب نفع.

(**أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**) فتعلمون أن خالق السموات والأرض ، المستوي على العرش العظيم ، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم ، وله الشفاعة كلها ، هو المستحق لجميع أنواع العبادة .

قال ابن عاشور : التذكر : مشتق من الذُكر الذي هو بضم الذال وهو التفكر والنظر بالعقل.

الفوائد :

١- إثبات أن الخالق هو الله .

٢- عظم خلق السموات والأرض .

٣- إثبات أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله من غير تحريف ولا تكييف .

٤- عظم قدرة الله .

٥- أن بين السموات والأرض من الآيات شيئاً كثيراً .

٦- أن خلق السموات والأرض في ستة أيام .

٧- إثبات علو الله .

٨- أنه ليس للخلق ولي من دون الله .

٩- إبطال تعلق المشركين بآلهتهم .

(يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦))

[السجدة : ٥ – ٦] .

(**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ**) أي : تنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى الأرض ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) .

- **قال السعدي** : فيُسعد ويُشقي ، ويُغني ويُفقر ، ويُعز ويُذل ، ويُكرم ويُهين ، ويرفع أقواماً ويضع آخرين ، ويُنزل الأرزاق ‘‘

(**ثم يعرج إليه**) أي ما يترتب على ذلك الأمر يصعد إلى الله .

(**في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون**) أي في يوم من أيام الدنيا ، فيكون الملك قد قطع في يوم واحد من أيام الدنيا في نزوله وصعوده مسافة ألف سنة من مسيرة الآدمي .

- **قال ابن كثير** : أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء

الدنيا ومسافة بينهما وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وقال مجاهد وقتادة والضحاك : النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها في طرفة عين .

- **إشكال :**

قال تعالى في سورة المعارج قال تعالى (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) .

وقد اختلف العلماء في الجمع بين الآيتين :

فذهب طائفة من العلماء إلى أن المراد باليومين في الآيتين يوم واحد ، ويكون العروج فيه إلى الله ، وإنما اختلف المدة في الآيتين ، فكانت في إحداهما ألفاً ، وفي الأخرى خمسين ألفاً ، لاختلاف المسافة المقطوعة في كل منهما ، فالألف سنة جعلت مدة لنزول الملائكة وصعودهم إلى السماء الدنيا ، فإن المسافة بين الأرض والسماء الدنيا قُدرت في الأحاديث بخمسمائة عام ، فإذا قدر نزولهم وصعودهم كان المجموع ألف سنة ، وأما الخمسون ألفاً فهي المدة التي يعرجون فيها من فوق السبع الطباق من عند العرش إلى أسفل الأرض .

وإلى هذا ذهب طائفة من السلف ، وبه قال مجاهد ، ومحمد بن إسحاق .

ورجحه ابن جرير ، والبغوي .

- **قال البغوي** : قوله تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أي: في يوم واحد من أيام الدنيا وقدر مسيرة ألف سنة، خمسمائة نزوله، وخسمائة صعوده، لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، يقول: لو سار فيه أحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة، والملائكة يقطعون في يوم واحد، هذا في وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء، وأما قوله: "تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" (المعارج-٤) ، أراد مدة المسافة بين الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل، يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا. هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك .

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد باليومين المذكورين في الآيتين هما يومان مختلفان متغايران ، وليس المراد بهما يوماً واحداً .

فاليوم المذكور في سورة السجدة : هو في الدنيا ، فالملائكة تعرج إلى السماء ثم تنزل في يوم من أيام الدنيا ، وقدر ذلك اليوم ألف سنة مما يعد خلقه .

وأما اليوم المذكور في سورة المعارج فهو يوم القيامة ، فالملائكة ومعهم الروح إليه تعرج في يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ، كان قدر ذلك اليوم الذي فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وهذا قول ابن عباس في أحد أقواله ، والضحاك ، وعكرمة .

ورجح بعض العلماء هذا القول لأمور :

أولاً : دلالة السياق القرآني ، فالسياق في سورة السجدة يدل على أنه في هذه الدنيا بدلالة قوله (يدبر ...) فهذا التدبير والعروج مع وجود السماء ووجود الأرض يدل على أن هذا التدبير وهذا العروج إنما هو في الدنيا ، ومما يدل على أن اليوم في سورة المعارج المراد به يوم القيامة : الضمير الواقع مفعولاً به في كل من (يرونه) و (نراه) ومرجعه في الآيات ، فالضمير فيهما راجع إلى اليوم ، فتفسيره به أولى من رجوعه إلى (عذاب واقع) وذلك لأن اليوم أقرب مذكور ، وحمل الضمير إلى أقرب مذكور هو الأولى والراجح .

ثانياً : مما يدل على اختلاف اليومين المذكورين في سورة المعارج : دلالة الحديث الوارد في الصحيح – وهو حديث مانع الزكاة –

قال ﷺ (مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لاَ يُؤَدِّى زَكَاتَهُ إِلاَّ أُحْمِىَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ وَجَبِينُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ يُرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّار) .

دل هذا الحديث على أن اليوم المقدر بخمسين ألف سنة إنما هو من أيام القيامة ، وليس من أيام الدنيا .

ثالثاً : اختلاف المعنى الذي دلت عليه كل من الآيتين وهو اختلاف ظاهر ، ففي سورة السجدة دلت أن العروج للأمر ، بينما دلت سورة المعارج أن العروج للملائكة والروح .

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن سبيل الجمع بين الآيات السابقة فأجاب:

قبل الإجابة على هذا السؤال أود أن أبين أنه ليس في كتاب الله ، ولا في ما صح عن رسول ﷺ ، تعارض أبداً ، وإنما يكون التعارض فيما يبدو للإنسان ويظهر له ، إما لقصور في فهمه ، أو لنقص في علمه ، وإلا فكتاب الله وما صح عن رسوله ﷺ ليس فيهما تعارض إطلاقاً ، قال الله تعالى (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) .

فإذا بدا لك أيها الأخ شيء من التعارض بين آيتين من كتاب الله ، أو حديثين عن رسول الله ﷺ ، أو بَيْن آية وحديث : فَأَعِد النظر مرة بعد أخرى ، فسيتبين لك الحقُّ ووجهُ الجمع ، فإن عجزت عن ذلك فاعلم أنه إما لقصور فهمك ، أو لنقص علمك ، ولا تتهم كتاب الله عز وجل ، وما صح عن رسوله ﷺ ، بتعارضٍ وتناقض أبدا.

وبعد هذه المقدمة أقول:

إن الآيتين اللتين أوردهما السائل في سؤاله – وهما قوله تعالى في سورة السجدة : (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) وقوله في سورة المعارج : (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) الجمع بينهما : أن آية السجدة في الدنيا ، فإنه سبحانه وتعالى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم ، كان مقدار هذا اليوم – الذي يعرج إليه الأمر – مقداره ألف سنة مما نعد ، لكنه يكون في يوم واحد ، ولو كان بحسب ما نعد من السنين لكان عن ألف سنة ، وقد قال بعض أهل العلم إن هذا يشير إلى ما جاء به الحديث عن النبي ﷺ (أن بين السماء الدنيا والأرض خمسمائة سنة) فإذا نزل من السماء ثم عرج من الأرض فهذا ألف سنة.

وأما الآية التي في سورة المعارج ، فإن ذلك يوم القيامة كما قال تعالى : (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوح) .

وقوله : (في يوم) ليس متعلقاً بقوله تعالى : (الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) ، لكنه متعلق بما قبل ذلك.

وقوله (لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) هي جملة معترضة.

وبهذا تكون آية المعارج في يوم القيامة ، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة في قصة مانع الزكاة أنه يحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

فتبين بهذا أنه ليس بين الآيتين شيء من التعارض لاختلاف محلهما والله أعلم " انتهى باختصار . (فتاوى نور على الدرب) .

(**ذلك عالم الغيب والشهادة**) أي المدبر لهذه الأمور ، الذي هو شهيد على أعمال عباده ، يعلم ما غاب عن المخلوقين وما هو مشاهد لهم .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (عالم الغيب) أي : كل ما غاب عن الخلق (والشهادة) أي كل ما شاهده الخلق فيدبر سبحانه ذلك على وفق الحكمة ، وقيل : الغيب الآخرة والشهادة الدنيا
- **قال القرطبي** : وفي الآية معنى التهديد والوعيد، كأنه يقول: أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإني مجازيكم عليها، ومعنى (الغيب

والشهادة) ما غاب عن الخلق وما حضرهم

(**العزيز**) اسم من أسماء الله وهو : العزيز ، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله ، وهي ثلاثة أنواع :

- **عزة القدْر** : بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، كما قال النبي ﷺ (السيد الله) .
- **وعزة القهر** : بمعنى أن الله القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .
- **وعزة الامتناع** : بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص .

- **قال السعدي** : (العزيز) الذي له العزة كلها : عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته .
- **الآثار المترتبة على معرفة هذا الاسم :**

أولاً : أن اسمه سبحانه (العزيز) يستلزم توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، إذ الشركة تنافي كمال العزة .

ثانياً : ومن كمال العزة تبرئته سبحانه من كل سوء وتنزيهه من كل شر ونقص ، قال ابن القيم : ومن تمام عزته : براءته عن كل سوء وشر وعيب ، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

ثالثاً : من كمال عزته سبحانه نفاذ حكمه وأمره في عباده وتصريف قلوبهم على ما يشاء ، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله ، وهذا يجعل العبد خائفاً من ربه سبحانه ، لائذاً بجنابه معتصماً به متبرئاً من الحول والقوة ذليلاً حقيراً بين يدي ربه سبحانه .

رابعاً : أن الإيمان بهذا الاسم الكريم يثمر العزة في قلب المؤمن ، ومهما ابتغى العبد العزة عند غير الله وفي غير دينه فلن يجدها ولن يجد إلا الذل والضعف والهوان كما قال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) . والشعور بهذه العزة تثمر التعالي على الباطل وأهله وعدم الاستكانة لهم مهما تسلطوا على العبد .

خامساً : أن الإيمان بهذا الاسم يثمر عدم الركون إلى شيء من هذه الدنيا الفانية وجعلها مصدر العزة والقوة ، فكم رأينا وسمعنا من كثير من الناس اغتر بعضهم بماله أو جاهه أو ولده أو سلطانه ومنصبه فكانت كلها سبباً في إذلاله وشقائه .

سادساً : من أسباب العزة : العفو والتواضع والذلة للمؤمنين ، قال تعالى في وصف عباده الذين يحبهم ويحبونه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال ﷺ (... وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً). رواه مسلم

(**الرحيم**) الذي وسعت رحمته كل شيء ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها .

والرحيم : اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى ، كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

- ورحمة الله تعالى لعباده نوعان :

الأولى : رحمة عامة .

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم ، وتربيتهم ، ورزقهم ، وإمدادهم بالنعم والعطايا ، وتصحيح أبدانهم ، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ، ومساكنهم ، ولباسهم ، وحركاتهم ، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

الثانية : رحمة خاصة .

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم ، ويثبتهم عليه ، ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيها ، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب ، ويغفر لهم ذنوبهم ،

ويكفرها بالمصائب ، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخول الجنة ، كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) .

قال الشيخ ابن عثيمين : فهي رحمة إيمانية دينية دنيوية .

♦ ومن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

♦ ومن رحمته : سبحانه مغفرته لذنوب عباده بالصفح عنهم ، وتكفير سيئاتهم ، وفتح باب التوب لهم ، كما قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

♦ ينبغي على العبد أن يتصف بصفة الرحمة ، فقد مدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، ومن أسمائه ﷺ (نبي الرحمة) ومدح الصحابة بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، وخص أبو بكر من بينهم بقوله (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر) .

♦ **الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :**

أولاً : محبة الله المحبة العظيمة ، وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله في الآفاق وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى ، وهذا يثمر تجريد المحبة لله والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته على النفس والأهل والمال والناس جميعاً .

ثانياً : عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله وعدم اليأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله قد وسعت رحمته كل شيء ، وحسن الظن بالله وانتظار الفرج بعد الشدة من أجل العبادات .

ثالثاً : اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى، وقد حض الله عباده على التخلق بها، ومدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ومن أسمائه ﷺ أنه نبي الرحمة، ومدح الصحابة بقوله (رحماء بينهم) وخُص أبو بكر بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل حيث قال ﷺ فيه (أرحم أمتي أبو بكر) رواه أحمد .

رابعاً : التعرض لرحمة الله بفعل أسبابها .

♦ وإذا كان الله رحيماً فينبغي أن يعمل بالأسباب التي تنال بها الرحمة :

أولاً : رحمة الناس .

قال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد .

ثانياً : الإحسان .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

ثالثاً : طاعة الرسول ﷺ .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) . رواه البخاري .

خامساً : عيادة المريض .

قال رسول الله ﷺ (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) رواه مسلم .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود .

سابعاً : الحلق في النسك .

قال رسول الله ﷺ (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) متفق عليه .

ثامناً : مجالس الذكر .

قال رسول الله ﷺ (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة) رواه مسلم .

تاسعاً : الجلوس في المسجد .

قال رسول الله ﷺ (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) متفق عليه .

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان .

الحادي عشر : الإنصات للقرآن .

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثاني عشر : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قال تعالى (وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثالث عشر : الاستغفار .

قال تعالى (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الفوائد :

١- أن أمر الله شامل للسماء والأرض .

٢- عموم علم الله .

٣- أنه لا يعلم الغيب إلا الله .

كما قال تعالى : (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) .

٤- إثبات هذين الاسمين من أسماء الله : العزيز الرحيم .

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩)) .

[السجدة : ٧ – ٩] .

(**الذي أحسن كل شيء خلقه**) يخبر تعالى أنه أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها .

- **قال ابن عاشور** : والإحسان : جعل الشيء حَسناً ، أي محموداً غير معيب ، وذلك بأن يكون وافياً بالمقصود منه فإنك إذا تأملت الأشياء رأيتها مصنوعة على ما ينبغي ؛ فصلابة الأرض مثلاً للسير عليها ، ورقة الهواء ليسهل انتشاقه للتنفس ،

وتوجه لهيب النار إلى فوقُ لأنها لو كانت مثل الماء تلتهب يميناً وشمالاً لكثرت الحرائق فأما الهواء فلا يقبل الاحتراق.

- **قال السعدي** : أي : كل مخلوق خلقه الله ، فإن الله أحسن خلقه ، وخلقه خلقاً يليق به ويوافقه " .

(**وبدأ خلق الإنسان من طين**) يعني خلق أبا البشر آدم من طين .

(**ثم جعل نسله**) أي ذرية آدم ناشئة .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ) أي : ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه .

(**من سلالة من ماء مهين**) السلالة الخالص من الشيء ، أي جعل ذريته يتناسلون من خلاصة من ماء ضعيف حقير هو المني قال الماوردي :(ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ) أي ذريته (مِن سُلاَلَةٍ) لإنسِلاَلِهِ من صلبه (مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ) قال مجاهد ضعيف.

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (مّن مَّاء مَّهِينٍ) ممتهن لا يعتني به وهو المني .
- **قال ابن عاشور** : وسميت النطفة التي يتقوم منها تكوين الجنين سُلالة كما في الآية لأنها تنفصل عن الرجل .

وقال : والمهين : الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به.

والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يُعبأ به ولا يصان.

(**ثم سواه**) يعني آدم لما خلقه من تراب ، خلقه سوياً مستقيماً .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (ثُمَّ سَوَّاهُ) رجع إلى آدم ، أي سوّى خلقه.
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (ثم سواه) عدله بتكميل أعضائه في الرحم وتصويرها على ما ينبغي ، وأصل التسوية جعل الأجزاء متساوية .

(**ونفخ فيه من روحه**) أي نفخ فيه بعد ذلك الروح .

- **قال الآلوسي** : أضاف الروح إليه تعالى تشريفاً له كما في بيت الله تعالى وناقة الله تعالى وإشعاراً بأنه خلق عجيب وصنع بديع .
- **وقوله** (**من روحه**) ليس معناه أن آدم شيء من روح الله فيكون جزءاً من الله ، فإن هذا مستحيل ، وإنما الإضافة هنا إضافة خلق وتشريف ، كما قال تعالى : (وطهر بيتي) .

(**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**) أي ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً حتى أعطاكم السمع لتسمعون به الأصوات ، والبصر لتبصروا به ، والعقل لتدركوا به الحق والهدى .

- وخصص الأسماع والأبصار والأفئدة بالذكر لأنها موضع الأفكار والاعتبار.

(**قليلاً ما تشكرون**) أي قليل شكركم لربكم على هذه القوى التي رزقكموها الله ، فإن السعيد من استعملها في طاعة الله .

قال ابن عاشور : ثم يجوز أن يكون (قليلاً) مستعملاً في حقيقته وهي كون الشيء حاصلاً ولكنه غير كثير.

ويجوز أن يكون كناية عن العدم كقوله تعالى (فلا يؤمنون إلا قليلاً) .

وعلى الوجهين يحصل التوبيخ لأن النعم المستحقة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدمُ الشكر سواء .

- وقد اخبر تعالى أن قليل من الناس من يشكر .

قال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

- **والشكر** : هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب ، وثناء باللسان ، وطاعة بالأركان .

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين : أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة الرجل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة المال : أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله

- فضل الشكر وعلو منزلته ، ومما يدل على ذلك :

فضائل الشكر :

أولاً : الله أمر به .

قال تعالى : (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

ثانياً : التوبيخ على عدم الشكر .

قال تعالى : (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ) .

ثالثاً : الثناء على الشاكرين وأنه سبل الرسل .

قال تعالى : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

رابعاً : الشكر نفع للشاكر نفسه .

قال تعالى : (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) .

خامساً : أن الشكر إذا صدر من المؤمنين فهو مانع من نزول العذاب .

قال تعالى : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) .

سادساً : أن الشكر سبب لزيادة النعم .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

سابعاً : أن الصفوة من عباد الله يسألون الله أن يوزعهم شكر نعمته .

قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

ثامناً : أن الشاكرين قليلون .

قال تعالى : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

وهذا يدل على أنهم هم خواص الله .

تاسعاً : أن الله خلق الناس ليشكروه .

قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ

الفوائد :

١- حسن خلق الله وتدبيره .

٢- أن آدم مخلوق من طين .

وقد جاء آيات تبين أنه خلق من تراب :

كما قال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

وجاء آيات أنه خلق من طين :

كما في هذه الآية .

وجاء في آيات أنه خلق من صلصال من حمإ مسنون .

كما قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) .

وهذا كله حق ولا تعارض فيه ، فالتراب إذا خلط بالماء صار طيناً ، والصلصال طين مخصوص ، وإذا يبس صار فخاراً ، فهذه أطوار في الخلق .

٣- أن أصل الإنسان من ماء مهين .

٤- أن الخالق هو الله .

٥- حكمة الله في خلق الإنسان على أطوار .

٦- بيان فضل آدم ، حيث سواه الله ونفخ فيه من روحه .

ولذلك في حديث الشفاعة يقول الناس لآدم : (يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، اشفع لنا عند ربك) .

٧- من أعظم النعم نعمة السمع والبصر والقلب .

٨- أن القليل من الناس من يشكر الله .

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) .

[السجدة : ١٠- ١١] .

(**وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ**) يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد ، حيث قالوا (أإذا ضللنا في الأرض) أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت .

(**أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**) أي أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الله الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال تعالى :

(**بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ**) أي : بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء وهو كفرهم وجحودهم بلقاء الله في دار الجزاء .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) أي : ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة ؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون الله تعالى .

(**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**) أي قل لهم رداً على مزاعمهم الباطلة ، يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم هو وأعوانه .

(**ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**) فيجازيكم بأعمالكم ، وقد أنكرتم البعث ، فانظروا ما ذا يفعل الله بكم .

- **قال الشنقيطي** : ظاهره هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين ، وهذا هو المشهور ، وقد جاء في

بعض الآثار أن اسمه عزرائيل.

وقد بين تعالى في آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد كقوله تعالى (إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ) الآية ، وقوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) وقوله تعالى (وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ) الآية. وقوله تعالى (حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

وإيضاح هذا عند أهل العلم أن الموكل يقبض الأرواح ملك واحد ، هو المذكور هنا ، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم ، فيأخذها ملك الموت ، أو يعينونه إعانة غير ذلك.

وأما قوله تعالى (الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا) فلا إشكال فيه ، لأن الملائكة لا يقدرون أن يتوفوا أحداً إلا بمشيئته جل وعلا (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً) .

فتحصل : أن إسناد التوفي إلى ملك الموت في قوله هنا (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ) لأنه هو المأمور بقبض الأرواح ، وأن إسناده لملائكة في قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) الآية. ونحوها من الآيات ، لأن لملك الموت أعواناً يعملون بأمره ، وأن إسناده إلى الله في قوله تعالى (الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا) لأن كل شيء كائناً ما كان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره. والعلم عند الله تعالى.

الفوائد :

١- استبعاد المشركين للبعث .

كما قال تعالى : (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) .

وقال تعالى عنهم : (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) .

وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ) .

وقال تعالى : (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) .

٢- إثبات لقاء الله والبعث والجزاء .

٣- أن للموت ملك خاص به ، وقد ورد أن اسمه عزرائيل لكنه لا يصح .

٤- إثبات الملائكة .

٥- إثبات أن لكل ملك وظيفة تخصه .

٦- إثبات الموت ، وأن كل نفس ذائقة الموت .

٧- أن من الملائكة من لا نعرف أسماءهم .

(٢٥ / رمضان / ١٤٣٦هـ) .

(ولَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤))

[السجدة : ١٢- ١٤] .

(ولَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ) يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وحالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم ذلاً وصغاراً .

قوله تعالى (**ولَوْ تَرَى** ...) والمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب.

- **قال ابن عطية** : و(المجرمون) هم الكافرون بدليل التوعد بالنار وبدليل قولهم (إنا موقنون) أي : أنهم كانوا في الدنيا غير موقنين ، وتنكيس الرؤوس هو من الذل واليأس والهم بحلول العذاب وتعلق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (نَاكِسُو رُءُوسِهِم) أي : من الندم والخزي والحزن والذلّ والغم (عِنْدَ رَبِّهِمْ) أي : عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم.

(**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا**) أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) .

- **قال الشنقيطي** : معنى الآية : أن الكفار يوم القيامة يسمعون ويبصرون الحقائق التي أخبرتهم بها الرسل سمعاً وإبصاراً عجيبين ، وأنهم في دار الدنيا في ظلال وغفلة لا يسمعون الحق ولا يبصرونه .

وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

- **إشكال** :

قوله تعالى عنهم (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) كيف الجمع بين هذه الآيات والآيات التي تدل على أنهم لا يتكلمون ولا يسمعون كقوله تعالى (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ) وكقوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُماً) وكقوله تعالى (هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ . وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) ؟

فالجواب :

الجواب الأول : أن مشاهد اليوم الآخر ومراحله كثيرة ، ففي بعضها يكون الكفار عمياً وبكماً وصُمّاً على الحقيقة ، وفي بعضها الآخر يرون ويتكلمون ويسمعون .

وهو قول أبي حيان ، وابن القيم ، وابن كثير والشنقيطي وغيرهم كثير .

- **قال الإمام الطبري** – رحمه الله – : فإن قال قائل : وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عمياً وبكماً وصُمّاً وقد قال (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) فأخبر أنهم يرون ، وقال (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) فأخبر أنهم يسمعون وينطقون ؟

قيل : جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة ، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أُخَر غير حال الحشر .

- **وقال ابن كثير** – رحمه الله– وقوله : (عُمْيًا) أي : لا يبصرون (وَبُكْمًا) يعني : لا ينطقون (وَصُمًّا) : لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال ؛ جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمّاً عن الحق ، فجوزوا في محشرهم بذلك

أحوج ما يحتاجون إليه.

والجواب الثاني : أن النظر والكلام والسمع المثبت لهم خاص بما لا فائدة لهم فيه ، والمنفي عنهم خاص بما لهم فيه فائدة ، فهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً يسرهم ، ولا ينطقون بحجة .

وهو مروي عن ابن عباس والحسن البصري.

- **قال الإمام الطبري – رحمه الله –** : ويجوز أن يكون ذلك ، كما روي عن ابن عباس قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) ثم قال (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا) وقال (سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) وقال (دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) ، أما قوله (عُمْيا) : فلا يرون شيئا يسرّهم ، وقوله (بُكْما) : لا ينطقون بحجة ، وقوله (صُمًّا) : لا يسمعون شيئاً يسرّهم .

والقول الأول أظهر وأقوى .

- **قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي** – رحمه الله – في ذكر وجوه الجمع بين ذلك :

قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّا) الآية، هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يُبعثون يوم القيامة عمياً وبكماً وصمّاً ، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) ، وكقوله (وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) ، وكقوله (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً) الآية ، والجواب عن هذا من أوجه:

الوجه الأول : هو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته ، ويكون ذلك في مبدأ الأمر ، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم ، فيرون النار ويسمعون زفيرها ، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني : أنهم لا يرون شيئاً يسرهم ، ولا يسمعون كذلك ، ولا ينطقون بحجة ، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه ، وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وروي أيضاً عن الحسن كما ذكره الألوسي في تفسيره ، فنزّل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به كما تقدم نظيره.

الوجه الثالث : أن الله إذا قال لهم (اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ) وقع بهم ذاك العمى والصم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج ، قال تعالى (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ) ، وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدَّرة.

قال : أظهرها عندي : الأول.

وقد فصَّل ابن القيم رحمه الله الحال الذي يُحشرون فيه على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً وهو من موقف الحشر إلى وقت دخولهم النار ، وأنهم يكونون قبل ذلك يرون ويتكلمون ويسمعون.

- **قال ابن القيم – رحمه الله –** : وفصل الخطاب : أن الحشر هو الضم والجمع ، ويراد به تارة : الحشر إلى موقف القيامة كقوله النبي ﷺ (إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً) وكقوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) ، وكقوله تعالى (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) يراد به : الضم والجمع إلى دار المستقر ، فحشر المتقين : جمعهم وضمهم إلى الجنة ، وحشر الكافرين : جمعُهم وضمُّهم إلى النار ، قال تعالى (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً) ، وقال تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار ؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا (يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) ثم قال تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) وهذا الحشر الثاني ، وعلى هذا : فهم ما بين الحشر الأول من

القبور إلى الموقف والحشر الثاني من الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول: يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني : يُحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً ، فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته ، فالقرآن يصدّق بعضُه بعضاً ، (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً .

(**فَارْجِعْنَا**) أي إلى دار الدنيا .

(**نعمل صالحاً إنا موقنون**) أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاؤك حق .

- وقد علم الرب تبارك وتعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله كما قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا) وقال تعالى: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا).
- والعمل الصالح ما اجتمع فيه : الإخلاص والمتابعة .
- وفي هذا أهمية العمل الصالح في هذه الدار قبل أن يندم .
- فالكافر يتمنى العمل الصالح في موضعين :

الأول : عند احتضاره .

كما قال تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

الثاني : في النار يوم القيامة .

كما في هذه الآية .

وكما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا...وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً).

- أهمية العمل الصالح :

أولاً : يتمناه الكافر يوم القيامة .

كما في الآية التي سبقت .

ثانياً : أن الله أمر بالمسارعة إليه .

قال تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ...) .

ثالثاً : هو من يدخل معك القبر .

قال ﷺ : (يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) .

رابعاً : العمل الصالح هو نسبك الحقيقي .

قال ﷺ (وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُه) رواه مسلم .

خامساً : العمل الصالح سبب للحياة الطيبة :

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

سادساً : العمل الصالح سبب لدخول الجنان .

قال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

وقال تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) .

سابعاً : العمل الصالح سبب لمحبة الله .

قال ﷺ (قال تعالى : ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه) .

يا غافلاً عن العمل وغرّه طولُ الأمل

الموتُ يأتي بغتةً والقبرُ صندوق العمل

(**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**) أي لهدينا الناس كلهم ، وجمعناهم على الهدى ، فمشيئتنا صالحة لذلك ، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى ، كما قال تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) .

(**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي**) أي : وجب وثبت ثبوتاً لا تغير فيه .

(**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) أي لأملأن جهنم من الصنفين [الجن والإنس] فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

- (جهنم) سميت بذلك إما لبعد قعرها، من قولهم: بئر جهنام، إذا كانت عميقة القعر، وقيل: مشتقة من الجهومة وهي الغلظة، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي.
- **قال الماوردي** : قوله تعالى (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) يعني من عصاه من الجنة والناس. وفي الجنة قولان :

أحدهما : أنه الجن ، قاله ابن كامل.

الثاني : أنهم الملائكة ، رواه السدي عن عكرمة ، وهذا التأويل معلول لأن الملائكة لا يعصون الله فيعذبون. وسموا جنة لاجتنانهم عن الأبصار .

- في الآية أن الجني الكافر يدخل النار ، وهذا بالإجماع .

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) .

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) .

- **واختلف العلماء في مؤمنهم على قولين** :

القول الأول : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار .

وهذا قول أبي حنيفة .

لقوله تعالى : (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

القول الثاني : أنهم يدخلون الجنة .

وهذا مذهب الجمهور .

لقوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) والخطاب للإنس والجن .

ولقوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ) .

ولقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل .

وهذا القول هو **الصحيح** .

(**فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا** أي : يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناسٍ له .

(**إِنَّا نَسِينَاكُمْ**) أي : تركناكم بالعذاب ، جزاء من جنس عملكم ، فكما نَسِتم نُسِتُم .

(**وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) أي : العذاب الغير المنقطع ، بسبب كفركم وتكذيبكم .

الفوائد :

١- بيان شدة حال الكافرين يوم القيامة .

٢- أن الكفار يعرفون الحق يوم القيامة ويعترفون أنهم كانوا على باطل ، لكن لا ينفعهم .

كما قال تعالى : (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) .

وقال تعالى : (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) .

٣- أن الكافر يتمنى العمل الصالح يوم القيامة .

٤- على المسلم أن يحرص على الإكثار من العمل الصالح ، لأنه إذا مات سيندم على تفريطه .

٥- الحرص على الاستفادة من الأوقات بالعمل الصالح .

٦- أن الكافر يوم القيامة ينسى الدنيا وحطامها ولا يريد إلا العمل الصالح الذي فرط فيه .

٧- أن العبرة بالإيمان واليقين في دار الدنيا ، فهي موطن العمل والاختبار لا يوم القيامة ، حين يرى الإنسان العذاب والنار .

٨- إثبات مشيئة الله .

٩- إثبات جهنم وأنها اسم من أسماء النار .

١٠- أن النار ستمتلئ من كفار الإنس والجن .

كما قال تعالى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

١١- إثبات الجن ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) .

وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقال تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) .

وعن أبي سعيد قال : قال لي رسول الله ﷺ : (إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول : (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون) . رواه البخاري

وقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار) . رواه مسلم

١٢- أن الجن مكلفون ، ولذلك يعاقب عاصيهم ويثاب مطيعهم .

قال ابن رجب : والجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليس مماثلين للإنس في الجد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الجد ، لكنهم مشاركوا الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .

قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

ويقول تعالى يوم القيامة مخاطباً كفرة الجن والإنس موبخاً مكبتاً : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) .

١٣- أن أكثر الناس من أهل النار ، لأن الشر أكثر من الخير .

كما قال تعالى : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال تعالى : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)) .

[السجدة : ١٥- ١٧] .

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أي : إنما يصدق بآياتنا ، ويؤمن بها إيماناً حقيقياً .

والمراد بالآيات الآيات الشرعية كالقرآن ، والآيات الكونية .

(إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا) أي تليت عليهم الآيات ، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله ، ودُعُوا إلى التذكر ، سمعوها فقبلوها وانقادوا .

(خَرُّوا سُجَّدًا) أي سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعظيماً لآياته .

وهنا سؤال : وهو هل كل من ذكر بآيات الله يسجد ؟

قال بعض العلماء : المراد إذا ذكروا بها خروا سجداً ، في موضع السجود (يعني إذا مررت بآية سجدة) .

لكن الصواب خلاف ذلك : والمعنى إذا ذكروا بها انقادوا لها ، ولا يلزم من ذلك أن يكون السجود مباشر للتذكير ، بل حتى في المستقبل .

(وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) أي قالوا : سبحان الله وبحمده .

ويحتمل أن يكون المراد : نزهوه بقلوبهم عما لا يليق به ، وحمدوه بألسنتهم عما يستحق .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) أي : ونزهوه تعالى عند ذلك عن كل ما لا يليق به سبحانه من الأمور التي من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه جل وعلا التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيق إلى الاهتداء بها فالحمد في مقابلة النعمة

(وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) لا بقلوبهم ولا بأبدانهم ، فممتنعون من الانقياد لها ، بل متواضعون لها ، قد تلقوها بالقبول ، وقابلوها بالانشراح والتسليم ، توصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم .

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة .

تتجافى : ترتفع وتبتعد عن الفرش . **المضاجع** : مكان الاضطجاع (النوم) .

- قال الجمهور من المفسرين : أراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل.
- **قال القرطبي** : وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان :

أحدهما : لذكر الله تعالى ، إمّا في صلاة وإما في غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك.

الثاني : للصلاة.

وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها : التّنفّل بالليل ؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح ، وهو قول مجاهد والأوزاعيّ ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم.

ويدلّ عليه قوله تعالى (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بما خفي.

- وفي هذا فضل قيام الليل :

أولاً : أن الله تبارك وتعالى مدح أهله .

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

- **قال ابن كثير** : تتجافى جنوبهم عن المضاجع : يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة .

يدعون ربهم خوفاً وطمعاً : أي خوفاً من وبال عقابهِ وطمعاً في جزيل ثوابهِ .

ومما رزقناهم ينفقون : فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية .

ثانيا : قيام الليل من علامات المتقين .

قال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

قال الحسن البصري في الآية : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وفي قوله سبحانه (وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) قال الرازي في الآية : إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، فيستغفرون من التقصير ، وهذه سيرة الكريم : يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به .

ثالثاً : قيام الليل من صفات عباد الرحمن . أولياء الله ومن أسباب دخول الجنة .

يقول تعالى في وصف عباد الرحمن (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ... أولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) .

رابعاً : وفرق تعالى بين من قام الليل ومن لم يقمه ، ممتدحاً صاحب القيام .

فقال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

خامساً : قيام الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم .

- **قال ابن رجب** : وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار ، لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص ، ولأن صلاة الليل أشق على النفوس ، فإن الليلَ محل النومِ والراحة من التعب بالنهار ، فترْك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدةٌ عظيمةٌ ، ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر ، فإنه تنقطع الشواغل بالليل ، ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم كما قال تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً) .

سادساً : من أسباب دخول الجنة .

عن عبد الله بن سلام . قال : قال ﷺ (أيها الناس ! أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) رواه الترمذي .

سابعاً : قيام الليل سبب للنجاة من الفتن .

فالصلاة عموماً ، وصلاة الليل خصوصاً سبب من أسباب النجاة من الفتن .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتِ (اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ) رواه البخاري .

ففي هذا الحديث دليل وتنبيه على أثر الصلاة بالليل في الوقاية من الفتن .

ثامناً : أنه شرف للمؤمن .

فقد جاء في الحديث عن سهل قال : قال ﷺ (جاءني جبريل ! فقال يا محمد ! اعمل ما شئت فإنك مجزي به ، ... واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس) رواه الطبراني وحسنه الألباني .

فقيام الليل شرف للمؤمن ، لأنه دليل على إخلاصه ، ودليل على ثقته بربه ، ودليل على قوة إيمانه ، فيرفعه الله ويعزه ويرفع مكانته ويعلي درجته لأنه خلى بالله تعالى .

تاسعاً : لهم غرف في الجنة .

قال ﷺ (إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى بالليل والناس نيام) رواه أبو داود .

عاشراً : بقيام الليل يدرك المصلي وقت النزول الإلهي .

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (ينزل ربنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له) متفق عليه

الحادي عشر :وصف النبي ﷺ من يقوم الليل بنعم الرجل .

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ (كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأَقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنْتُ غُلاَماً شَابًّا ، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ ، وَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ – قَالَ – فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي لَمْ تُرَعْ ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ ، لَوْ كَانَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ ، فَكَانَ بَعْدُ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً) رواه البخاري .

قال الحافظ ابن حجر : فمقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نِعم الرجل .

الثاني عشر : قيام الليل من أسباب المغفرة والرحمة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا ، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ) رواه أبو داود .

الثالث عشر : من فضل قيام الليل أنه من مظان الإجابة .

عن جابر . قال : قال رسول الله ﷺ (إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه وذلك كل ليلة) متفق عليه .

- السلف وقيام الليل :

قالت عائشة (يا عبد الله! لا تدع قيام الليل، فإن النبي ﷺ ما كان يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى وهو قاعد). متفق عليه

وجاء في موطأ الإمام عن ابن عمر قال (كان عمر يصلي في الليل حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله وقرأ : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) .

وقال أبو عثمان النهْدي : تضيفت أبا هريرة سبعة أيام [أي نزلت عليه ضيفاً] فكان هو وزوجه وخادمه يقتسمون الليل أثلاثاً، الزوجة ثلثاً وخادمه ثلثاً وأبو هريرة ثلثاً .

وكان سليمان التيمي عنده زوجتان وكانوا يقتسمون الليل أثلاثاً .

والحسن بن صالح كان يقتسم الليل هو وأخوه وأمه أثلاثاً ، فماتت أمه ، فاقتسم الليل هو وأخوه علي ، فمات أخوه فقام الليل بنفسه .

وكان محمد بن واسع إذا جنّ عليه الليل يقوم ويتهجد ، يقول أهله : كان حاله كحال من قتل أهل الدنيا جميعاً .

وكان الإمام أبو سليمان الداراني يقول : والله لولا قيام الليل ما أحببت الدنيا ، ووالله إن أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ، وإنه لتمر بالقلب ساعات يرقص فيه طرباً بذكر الله فأقول : إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه من النعيم إنهم لفي نعيم عظيم .

(**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**) أي : أي يصلون ، فإن الدعاء والصلاة من باب واحد في المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافي الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة ، والحمل على الأول أولى لأنه قال بعده : (وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ) وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى (وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ) . (.**الرازي**)

(**خَوْفًا وَطَمَعًا**) أي خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً في جزيل ثوابه .

والمراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ، ودعاء العبادة .

- ينبغي على المسلم أن يكون راجياً خائفاً .

وقد امتدح الله الأنبياء والعباد الصالحين بالرغبة والرهبة .

فقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ «كَيْفَ تَجِدُكَ». قَالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ). رواه الترمذي

وقد وصف الله المؤمنين بعمل الصالحات مع الخوف من الله .

كما قال الله تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) .

عن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ : لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) رواه الترمذي .

وقد ذكر الله – تعالى – الخوف مقرونًا بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة .

قال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء ٱلَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ

يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو ٱلأَلْبَابِ) .

وقوله تعالى (ٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

وقوله تعالى (نَبِّىء عِبَادِي أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ*وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيمُ) .

وقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً).

وقوله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) .

وكما في قوله – سبحانه – (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) .

ولهذا قال السَّلف – رحِمهم الله – كلِمةً مشهورةً، وهي : مَنْ عبدَ الله بالحبِّ وحده، فهو زنديق، ومَن عبدَه بالخوف وحْده، فهو حروريٌّ – أي: خارجي – ومَن عبدَه بالرَّجاء وحْده، فهو مرجئ، ومن عبدَه بالخوف والحب والرَّجاء، فهو مؤمن موحِّد .

- **قال ابن القيم** : القلب في سيره إلى الله – عزَّ وجلَّ – بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأس والجناحان، فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر .
- **وقال ابن القيم** : من تأمل الصحابة وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف .

كان الصديق يقول : وددت لو أني شعرة في جنب عبد مؤمن .

وكان يمسك بلسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان يبكي كثيراً ويقول : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وهذا عمر قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه .

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة ، فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً .

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .

وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته .

وهذا علي وبكاؤه وجوفه ، وكان يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق .

وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع .

وكان أبو ذر يقول : يا ليتني كنت شجرة تعضد ، وودت أني لم أخلق . (الجواب الكافي) .

- **قال الحسن البصري**: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.
- **وقال السبكي** في طبقات الشافعية الكبرى: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم مأمونوا العواقب ومع ذلك هم أشد خوفاً، والعشرة المشهود لهم بالجنة كذلك، وقد قال عمر ﷺ : لو أن رجلي الواحدة داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله .

(**ومما رزقناهم ينفقون**) أي ومما أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البر .

- **قال السعدي** : ولم يذكر قيد النفقة ولا المنفق عليه ، ليدل على العموم ، فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة كالزكوات ، ونفقة الزوجات والأقارب ، والنفقة المستحبة في وجوه الخير .
- **قال ابن كثير** : فجمعوا بين فعل القربات اللازمة والمتعدية .
- **قال الحسن** : ما نجد أثقل من إنفاق المال وقيام الليل .

- كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والإنفاق [الزكاة] كقوله تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) :

قيل : إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين : إخلاصه لمعبوده ، وسعيه في نفع الخلق .

وقيل : الصلاة رأس العبادات البدنية ، والزكاة رأس العبادات المالية .

وقيل : الصلاة طهارة للنفس والبدن ، والزكاة طهارة للمال .

- **قال السعدي** : وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن ، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده ، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود ، وسعيه في نفع الخلق ، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه ، فلا إخلاص ولا إحسان.
- في الآية فضل الإنفاق في سبيل الله ، وللإنفاق فضائل عظيمة :

أولاً : أن الإنفاق استجابة لأمر ربنا تعالى .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ثانياً : مضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

ثالثاً : أن درجة البر تنال بالإنفاق .

قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

رابعاً : أنها من صفات المتقين .

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فقوله تعالى (فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) دليل على أن الإنفاق ملازم لهم في جميع أحوالهم .

خامساً : الأمان من الخوف يوم الفزع الأكبر .

قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

سادساً : أن صاحب الإنفاق موعود بالخير الجزيل .

قال تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

سابعاً : أن الله يخلف الصدقة .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

ثامناً : أن الإنفاق دليل على صحة الإيمان .

قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم ، فالصدقة برهان على صحة الإيمان .

تاسعاً : ينال دعاء الملائكة .

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكان : يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

عاشراً : فضل من سبق بالإنفاق والجهاد .

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) .

الحادي عشر : أنها إرغام للشيطان وحسن ظن بالله .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

الثاني عشر : لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير .

قال ﷺ (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) .

(**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**) أي : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد ، لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاءً وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل .

- **قال الحسن** : أخفى القوم أعمالاً فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت
- قوله (**فلا تعلم نفس**) : هذا نفي لعلم الحقيقة ، لا لعلم المعنى ، فإن المعنى معلوم مما أخبر به عز وجل ورسوله ﷺ ، لكن هذا الشيء مجهول .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) .

(**جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أي : ثواباً لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال .

فإن قيل : يقول ﷺ : (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) ، وفي هذه الآية أن دخول الجنة بالعمل ، **فكيف الجمع ؟**

فالجواب من وجوه :

قيل : العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة لولا أن الله جعله – بفضله ورحمته – سبباً لذلك ، والعمل نفسه من فضل الله ورحمته على عبده ، فالجنة وأسبابها كل من فضل الله ورحمته .

وهذا مذهب ابن حزم ، والبيهقي ، وابن العربي ، والنووي ، وابن رجب ، والشوكاني .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى (أُدْخُلُوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَتِلْك الْجَنَّة الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوهمَا مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الْجَنَّة ، فَلَا يُعَارِض هَذِهِ الْأَحَادِيث ، بَلْ مَعْنَى الْآيَات : أَنَّ دُخُول الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَال ، ثُمَّ التَّوْفِيق لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَة لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا ، وَقَبُولهَا بِرَحْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَفَضْله ، فَيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ الْعَمَل . وَهُوَ مُرَاد الْأَحَادِيث ، وَيَصِحّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا ، وَهِيَ مِنْ الرَّحْمَة . وَاَللَّه أَعْلَم . (شرح مسلم) .

- **وقال ابن رجب** : وفي رواية الإمام أحمد في حديث معاذ أنَّه قال : يا رسول الله ، إنِّي أريدُ أنْ أسألَكَ عن كلمةٍ قد أمرضَتني وأسقمتني وأحزنتني ، قال : سل عمَّا شئتَ ، قال : أخبرني بعملٍ يدخلُني الجنَّة لا أسألكَ غيرَه ، وهذا يدلُّ على شدَّةِ

اهتمامِ معاذٍ ﷺ بالأعمال الصَّالحة ، وفيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ سببٌ لدخول الجنَّة ، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وأما قولُه ﷺ (لَنْ يدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّة بِعمَلِه) فالمراد – والله أعلم – أنَّ العملَ بنفسه لا يستحقُّ به أحدٌ الجنَّة لولا أنَّ الله جعله – بفضله ورحمته – سبباً لذلك ، والعملُ نفسُه من رحمة الله وفضله على عبده ، فالجنَّةُ وأسبابُها كلٌّ من فضل الله ورحمته .

وقيل : إن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله وفضله ، وعليه يُحمل الحديث ، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال ، وعليه تحمل الآية .

وهذا مذهب ابن بطال ، وأبي عبد الله القرطبي .

وقيل : إن الباء في الآية ليست للسببية ، بل للإلصاق أو المصاحبة ، والمعنى : أورثتموها ملابسة أو مصاحبة لأعمالكم .

وهذا مذهب الكرماني ، واختيار العيني .

وقيل : إن الآية في العمل المقبول ، والحديث في العمل المجرد من القبول .

وهذا مذهب الحافظ ابن حجر ، والشنقيطي .

والراجح الأول . (انظر : كتاب الأحاديث المشكلة) .

الفوائد :

١- أن الإيمان يزيد وينقص .

٢- من علامات كمال الإيمان الخضوع والاستسلام لآيات الله وأوامره .

٣- ذم الكبر ، **والكبر له عواقب** :

أولاً : لا يدخل الجنة .

كما قال ﷺ : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) .

ثانياً : يطأه الناس .

كما قال ﷺ : (إن المتكبر يحشر يوم القيامة يطأه الناس بأقدامهم) . رواه الترمذي

ثالثاً : من أسباب دخول النار .

قال ﷺ : (احتجت الجنة والنار ، فقالت النار : فيّ الجبارون والمتكبرون ...) .

رابعاً : إذا تكبر الفقير فعذابه عظيم .

قال ﷺ : (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر) . رواه مسلم

٤- فضل قيام الليل .

٥- فضل أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء .

٦- فضل الإنفاق في سبيل الله في وجوه البر .

٧- عظم نعيم أهل الجنة .

٨- الحرص على الأعمال الصالحة ، فإنها من أسباب دخول الجنة .

٩- إثبات الجزاء والنعيم .

(فَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)) .

[السجدة : ١٨- ٢١] .

(**فَمَن كَانَ مُؤْمِنًا**) بآيات الله ، متبعاً لرسوله ، قد عمّر قلبه الإيمان ، وانقادت جوارحه لشرائعه .

(**كَمَن كَانَ فَاسِقًا**) خارجاً عن طاعة ربه ، مكذباً رسل الله إليه ، قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان .

المراد بالفسق هنا : الفسق الأكبر ، وهو المخرج عن الملة .

- والفسق هو الخروج عن طاعة الله ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد ، ويطلق ويراد به الكفر كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وقال تعالى (ومَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) .

ويطلق ويراد به ما دونه من المعاصي كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ) .

- فهل يستوي هذا الشخصان ؟

(**لا يستوون**) عقلاً وشرعاً ، كما لا يستوي الليل والنهار ، والضياء والظلمة .

فلا يستوون عند الله يوم القيامة .

كما قال تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) .

وقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) .

وقال تعالى : (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ) أي : ليس المؤمن كالفاسق ؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم.

(**أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا**) بقلوبهم .

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) بجوارحهم .

أي : وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات ، والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين :

الشرط الأول : أن يكون خالصاً لله ، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

الشرط الثاني : أن يكون متابعاً للنبي ﷺ ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات ، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي ، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وبكل ما يجب الإيمان به .
- والإيمان شرعاً : قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان .
- ودائماً يقرن الله العمل بالصالح ، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ....) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) .

- **قال السعدي** : ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(**فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى**) أي : الجنات التي هي مأوى اللذات ، ومعدن الخيرات ، ومحل الأفراح ، ونعيم القلوب والنفوس ، ومحل الخلود ، وجوار الملك المعبود .

- **قال الشوكاني** : والمأوى هو الذي يأوون إليه ، وأضاف الجنات إليه ، لكونه المأوى الحقيقي.

وقيل : المأوى : جنة من الجنات ، وقد تقدّم الكلام على هذا

(**نُزُلاً**) لهم ، أي ضيافة وكرامة .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (نُزُلاً) أي ضيافة ، والنُّزُلُ : ما يُهيّأ للنازل والضيف.

(**بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية ، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال ، ولا بالجنود والخدم ، ولا بالأولاد ، بل ولا بالنفوس والأرواح ، سوى الإيمان والعمل الصالح .

(**وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا**) أي : خرجوا عن الطاعة ، والمراد بالفسق هنا المخرج من الملة .

- **قال ابن عاشور** : والفاسق هنا هو : مَن ليس بمؤمن بقرينة قوله بعده (وقيل لهم ذُوقُوا عذابَ النار الذي كنتم به تكذبون.

فالمراد : الفسق عن الإيمان الذي هو الشرك وهو إطلاق كثير في القرآن.

(**فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ**) أي : مقرهم ومحل خلودهم النار التي جمعت كل عذاب وشقاء .

(**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**) أي : إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردوا إلى موضعهم فيها .

- **قال الفضيل بن عياض** : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم .

(**وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**) أي : تقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً : ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزؤون فيه .

(**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى**) اختلف في المراد بالعذاب الأدنى :

قيل : مصائب الدنيا وأسقامها .

وقيل : ما أصابهم يوم بدر .

وقيل : سنون أخذوا بها .

وقيل : مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها .

وقيل : عذاب القبر .

- **قال ابن جرير** : وأولى الأقوال في ذلك أن يقال : إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم ، فكل ذلك من العذاب الأدنى ، ولم

يخصص الله تعالى ذكره إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع ، وقد عذبهم بكل ذلك في الدنيا ، بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال ، فأوفى لهم فيما وعدهم .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مّنَ العذاب الأدنى) وهو عذاب الدنيا.
- **قال الحسن وأبو العالية والضحاك والنخعي** : هو مصائب الدنيا وأسقامها.

وقيل : الحدود.

وقيل : القتل بالسيف يوم بدر.

وقيل : سنين الجوع بمكة.

وقيل : عذاب القبر ، ولا مانع من الحمل على الجميع (دُونَ العذاب الأكبر) وهو عذاب الآخرة (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) مما هم فيه من الشرك والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه.

وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال : إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر. (فتح القدير) .

(**دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ**) وهو عذاب النار .

- **قال ابن عطية** : لا خلاف أنه عذاب الآخرة.
- **وقال القرطبي** : ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم

(**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) إليه ويتوبون من ذنوبهم ، كما قال تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

الفوائد :

١- لا يستوي المؤمن والكافر أبداً عند الله .

٢- عظم منزلة المؤمن عند الله .

٣- من أسباب دخول الجنة الإيمان والعمل الصالح .

٤- أنه لا يكفي الإيمان من غير عمل صالح .

٥- أن العمل المقبول هو ما كان صالحاً ، وهو ما اجتمع فيه : الإخلاص – المتابعة .

٦- إثبات الجنة داراً لأهل الإيمان والتقى .

٧- نعم المنزل منزلة الجنة .

٨- أن مصير الكفار النار .

كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) .

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى : (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

٩- بيان شيء من شدة عذاب أهل النار .

١٠- إثبات النار وأنها دار الكافرين .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)) .

[السجدة : ٢٢] .

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**) أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها .

(**إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ**) أي : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

- أنه لا أحد أشد ظلماً ممن يذكر بآيات الله ثم يعرض عنها ويجعلها خلف ظهره .
  - فالإعراض عن آيات الله من أعظم الظلم .

كما في هذه الآية .

وكما قال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) .

  - والله ينتقم من المعرض .

كما قال هنا (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) .

  - والمعرض يخاف عليه بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

كما قال تعالى (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) .

  - والمعرض في معيشة ضنك .

قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) .

  - والمعرض يسلك العذاب الصعد .

كما قال تعالى (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) .

  - والمعرض يقيض الله له القرناء من الشياطين .

كما قال تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) .

قال ابن تيمية : من لم يقبل الحق ابتلاه الله بقبول الباطل .

وقال ابن القيم : من عرض عليه حق فلم يقبله ، عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه .

وقال رحمه الله : حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء :

أحدهما : رد الحق لمخالفته هواك ، فإنك تعاقب بتقليب القلب ، ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك ، قال الله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

والثاني : التهاون بالأمر إذا حضر وقته ، فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبةً لك ، قال تعالى (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) .

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فلْتَهْنِه السلامة.

قال الألباني : صاحب الحق يكفيه دليل واحد ، وصاحب الهوى لا يكفيه ألف دليل .

الفوائد :

١- ذم الإعراض

٢-أن الله ينتقم من المجرم .

٣- وجوب الانقياد للحق .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)) .

[السجدة : ٢٣- ٢٦] .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب ، وهو التوراة .

(فلا تكن في مرية من لقائه) اختلف العلماء في هذه الآية :

فقيل : أي من لقاء موسى ليلة الإسراء (وقد لقيه) .

والمعنى : فلا تكن يا محمد في شك ومرية من لقاء موسى ، فإنك ستلاقيه .

وقيل : أي فلا تكن في شك من لقاء الأذى كما لقي موسى وقد أوذي موسى ، كما قال ﷺ : (لقد أوذي موسى بأكثر من هذا) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ) .

أي فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى ؛ قاله ابن عباس ، وقد لقِيه ليلة الإسراء.

قتادة : المعنى فلا تكن في ك من أنك لقيته ليلة الإسراء.

والمعنى واحد.

وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها.

وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول ؛ قاله مجاهد والزجاج.

وعن الحسن أنه قال في معناه (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب) فأوذي وكُذّب ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقِيَه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف ، والمعنى من لقاء ما لاقى.

(وجعلناه) أي الكتاب الذي آتيناه موسى .

(هدى لبني إسرائيل) يهتدون به في أصول دينهم وفروعه وشرائعه ، موافقة لذلك الزمان ، في بني إسرائيل .

كما قال تعالى : (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً) .

(وجعلنا منهم) أي من بني إسرائيل .

(أئمة يهدون بأمرنا) أي علماء بالشرع ، وطرق الهداية ، مهتدين في أنفسهم يهدون غيرهم بذلك الهدى .

(لما صبروا) على فعل الطاعات ، وعلى ترك المنكرات ، وعلى تحمل أذى الخلق القول والفعلي ، وعلى طول الطريق في الدعوة إلى الحق .

(وكانوا بآياتنا يوقنون) أي : يوقنون بوعد الله ونصره لأوليائه .

وفي هذه الآية : أن الإمامة في الدين طريقها الصبر واليقين .

فالآية تخبر بوضوح بأن الإمامة لم تحصل لهؤلاء الموصوفين بها إلا بعد صبرهم على طاعة الله وعزوفهم عن لذات الدنيا وشهواتها،

وكونهم أهل يقين بما دلهم عليه الحجج الشرعية، وأهل تصديق لما تبين لهم من الحق من التوحيد وجميع مسائل الإيمان ، كما يقول الإمام الطبري رحمه الله .

- **قال السعدي** : وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماما يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقال رحمه الله : قوله تعالى (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين ، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون.

ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة –درجة الإمامة في الدين– لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَاهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً ، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

- **قال ابن تيمية** : فمن أعطي الصبر واليقين جعله الله إماماً في الدين .

وقال : ولهذا كان الصبر واليقين اللذان هما أصل التوكل يوجبان الإمامة في الدين .

- **قال ابن القيم** : فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم لصبرهم ويقينهم ، إذ بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ؛ فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم إلا له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه ، وبصيرته به ، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفس عما يُوهن عزمه ويضعف إرادته ، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى ، ومن المعلوم أن أصحاب النبي ﷺ أحق وأولى بهذا الوصف من أصحاب موسى ، فهم أكمل يقيناً وأعظم صبراً من جميع الأمم ، فهم أولى بمنصب هذه الإمامة .

وهذا أمر ثابت بلا شك بشهادة الله لهم وثنائه عليهم ، وشهادة الرسول ﷺ لهم بأنهم خير القرون ، وأنهم خيرة الله وصفوته ، ومن المحال على من هذا شأنهم أن يخطئوا كلهم الحق ، ويظفر به المتأخرون ، ولو كان هذا ممكناً لانقلبت الحقائق ، وكان المتأخرون أئمة لهم يجب عليهم الرجوع إلى فتاويهم وأقوالهم ، وهذا كما أنه محال حساً وعقلاً فهو محال شرعاً ، وبالله التوفيق .

- **قال ابن عاشور** : وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله ﷺ بأنهم يكونون أئمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إياهم.

- في الآية فضل الصبر ، **وفضائل الصبر كثيرة** :

أولاً : معية الله للصابرين .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

ثانياً : محبة الله لهم .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

ثالثاً : إطلاق البشرى لهم .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .

رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) .

وقال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

قال ﷺ (والصبر ضياء) .

قال ابن رجب : ولما كان الصبر شاقاً على النفوس ، يحتاج إلى مجاهدة النفس ، وحبسها وكفها عما تهواه ، كان ضياء ، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم .

- في الآية فضل اليقين ، **واليقين له فضائل :**

أولاً : سبب للإمامة .

قال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ) .

ثانياً : وأهل اليقين هم أهل الانتفاع بالآيات .

قال تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) .

ثالثاً : خص الله أهل اليقين بالهدى والفلاح .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) .

رابعاً : سبب دخول أهل النار النار عدم يقينهم .

قال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ).

خامساً : صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين .

قال ﷺ : (صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمان) .

سادساً : سبب لتهوين مصائب الدنيا .

فقد كان النبي ﷺ يدعو قبل أن يقوم من مجلسه : (...ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا) .

قال ابن مسعود : لو وقع اليقين في القلب لطار إلى الجنة اشتياقاً " .

(**إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**) قيل : بينَ الأنبياءِ وأممِهم وقيل : بين المؤمنينَ والمشركينَ (يَوْمُ القيامة) فيميّزُ بين المحقِّ والمبطلِ (فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) من أمورِ الدِّينِ.

- **ومعنى يفصل** : يقضي ويحكم .

الفوائد :

١- إثبات نبوة موسى .
٢- أن محمد ﷺ سيلقى من الأذى كما لقي موسى .
٣- أن التوراة هدى ونور لبني إسرائيل .
٤- فضل الصبر ، وأنه من أسباب الإمامة في الدين .
٥- فضل اليقين .
٦- أن الله يفصل بين الناس يوم القيامة بالعدل .
٧- إثبات الحساب والجزاء يوم القيامة .

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)) .

[السجدة : ٢٦] .

(**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ**) يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؟ (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ) أي : أو لم يبين لهم ، والهمزة للإنكار ، والفاعل ما دلّ عليه (كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مّنَ القرون) أي أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم.

(**يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**) أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا)كما قال (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) ، وقال (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

- ويحتمل أن يكون للمهلكين ف (يمشون) في موضع الحال ، أي أهلكوا وهم ماشون في مساكنهم .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ**) أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودَمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات

وعبرا ومواعظ ودلائل متظاهرة.

(**أَفَلا يَسْمَعُونَ**) أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟.

- **مباحث :**

أولاً : أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى .

قال تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً) .

وقال تعالى (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً) .

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) .

ثانياً : أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم .

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ) .

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً) .

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ) .

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) .

ثالثاً : أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل .

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) .

وقال تعالى (ومَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) .

رابعاً : أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ .

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) .

خامساً : أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

سادساً : أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

الفوائد :

١- أن إهلاك كثير من الأمم بسبب ذنوبهم .

قال تعالى : (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا) .

وقال تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) .

وقال تعالى : (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى : (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً) .

وقال تعالى : (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) .

وقال تعالى : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا) .

وقال تعالى : (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) .

٢- الحث على التدبر والاتعاظ من إهلاك الله للأمم .

كما قال تعالى : (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) .

وقال تعالى : (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ) .

وقال تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ) .

٣- أن الله لا يظلم أحداً .

٤- سنة الله في إهلاك كل من عصى وكفر وتجبر .

٥- ذم من لا يعتبر بما حدث بالأمم الماضية من العقوبات .

٦- قوة الله على من كفر وظلم .

٧- وجوب الاعتبار والاتعاظ بما حصل للأمم المكذبة .

٨- أن هلاك الأمم المكذبة من أعظم الآيات .

٩- ذم من لا يعتبر ولا يسمع سماع حق .

(**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)**) .

[السجدة : ٢٧] .

(**أَوَلَمْ يَرَوْا**) بأبصارهم وبقلوبهم نعمتنا وكمال حكمتنا .

(**أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ**) يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه لهم في إرسال الماء إما من السماء أو من السحب ، وهو ما يحمله الأنهار وتنحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته .

(**إلى الأرض الجزر**) أي الأرض التي لا نبات فيها ، كما قال تعالى : (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً) أي يبساً لا تنبت شيئاً .

- **قال الرازي** : والجرز الأرض اليابسة التي لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات.
- الجرز الأرض التي جُرِز نباتها ، أي قُطع ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِيَ وأزيل.

ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدلّ عليه قوله تعالى (فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً) .

(**فنخرج به زرعاً**) أي نباتاً مختلف الأنواع .

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (فنخرج به) : أي بالماء ، وخص الزرع بالذكر ، وإن كان يخرج الله به أنواعاً كثيرة من الفواكه والبقول والعشب المنتفع به في الطب وغيره ، تشريفاً للزرع ، ولأنه أعظم ما يقصد من النبات ، وأوقع الزرع موقع النبات.

(**تأكل منه أنعامهم**) وهو نبات البهائم .

(**وأنفسهم**) وهو طعام الآدميين .

(**أفلا يبصرون**) تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد ، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر ، وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم .

- **قال الرازي** : (أَفَلاَ يُبْصِرُونَ) لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين ، فإنها كانت مسموعة .

الفوائد :

١- بيان شيء من قدرة الله العظيمة من جريان الماء إلى الأرض الخالية من النبات فتخرج الأرض فيكون طعاماً .

٢- أن سوق الماء من رحمة الله وآياته .

٣- أن الله يبين شيئاً من آياته للناس لعلهم يتذكرون ويشكرون .

٤- أن الماء نعمة للناس ودوابهم .

٥- وجوب طلب الماء من الله .

٦- أن إخراج الزرع من الأرض بسبب الماء من آيات الله الدالة على وحدانيته .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)) .

[السجدة : ٢٨- ٣٠] .

(**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ**) يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعاداً وعناداً ، ويقولون متى الفتح، أي متى تنتصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا وينتقم لك منا؟ فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين .

- **وقال الشنقيطي** : أظهر أقوال أهل العلم عندي هو أن الفتح في هذه الآية الكريمة ، هو الحكم والقضاء ، وقد قدمنا أن وقد جاءت آيات تدل على أن الفتاح الحكم ، كقوله تعالى عن نبيه شعيب (عَلَى الله تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين) أي احكم بيننا بالحق ، وأنت خير الحاكمين.

وقوله تعالى عن نبيه نوح (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين) الآية. أي احكم بيني وبينهم حكماً.

وقوله تعالى (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق وَهُوَ الفتاح العليم) .

وقوله تعالى (إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح) أي : إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم ، ومن النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاءكم الفتح : أي الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر ، كما قاله غير واحد .

(**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) في دعواكم .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح) القائلون هم الكفار على العموم ، أو كفار مكة على الخصوص ، أي متى الفتح الذي تعدونا به، يعنون بالفتح : القضاء والفصل بين العباد، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده، قاله مجاهد وغيره ، وقال الفراء والقتيبي : هو فتح مكة.

(**قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ**) الذي يحصل به عقابكم ، ويحل بكم بأس الله وعقابه وسخطه .

(**لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ**) لأنه صار إيمان ضرورة ، فالإيمان لا ينفع عند حلول العذاب .

كما قال تعالى : (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

- **قال ابن كثير** : ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة وأخطأ فأفحش ، وإنما المراد بالفتح الذي هو القضاء والفصل ،كقوله تعالى : (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً) وقوله : (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) .
- **وقال ابن عطية** : ، وقالت فرقة الإشارة إلى فتح مكة ، وهذا ضعيف يرده الإخبار بأن الكفرة لا ينفعهم الإيمان .
- **وقال أبو حيان** : و(الفتح) الحكم ، قاله الجمهور ، وهو الذي يترتب عليه قوله (قل يوم الفتح) الخ ، ويضعف قول الحسن ومجاهد : فتح مكة ، لعدم مطابقته لما بعده ، لأن من آمن يوم فتح مكة ، إيمانه ينفعه ، وكذا قول من قال : يوم بدر.
- **وقال الشوكاني** : قوله تعالى (قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ) وفي هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة ؛ لأن يوم فتح مكة ويوم بدر هما مما ينفع فيه الإيمان.
- **قال الشنقيطي** : وعلى قول من قال : من أهل العلم إن المراد بالفتح في الآية الحكم والقضاء بينهم يوم القيامة فلا إشكال في قوله تعالى (قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ) .

وعلى القول بأن المراد بالفتح في الآية الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار. كما وقع يوم بدر ، فالظاهر أن معنى قوله تعالى (قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ)أي : إذا عاينوا الموت ، وشاهدوا القتل بدليل قوله تعالى (فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّةَ الله التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون) وقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن) الآية. وقوله تعالى في فرعون (حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين) ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم : إن الفتح في هذه الآية : فتح مكة أنه غير صواب بدليل قوله تعالى (قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ) ومعلوم أن فتح مكة لا يمنع انتفاع المؤمن في وقته بإيمانه كما لا يخفى.

(**وَلا هُمْ يُنظَرُونَ**) أي : يمهلون ، فلا يؤخر عنهم العذاب فيستدركون أمرهم .

(**فأعرض عنهم**) أي أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك .

وليس المراد الإعراض عن دعوتهم ، وإنما المراد الإعراض تكذيبهم واستهزائهم ، **قال القرطبي** : '' قيل : فأعرض عن سفههم ولا تجيبهم إلا بما أمرت '' .

(**وانتظر**) فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك إنه لا يخلف الميعاد .

(**إنهم منتظرون**) **قيل** : ينتظرون بك حوادث الدهر . **وقيل** : منتظرون للعذاب والعقاب .

الفوائد :

١- أن الكفار يستعجلون العذاب .

كما قال تعالى : (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) . **قطنا** : عذابنا .

وقال تعالى : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقال تعالى : (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ) .

٢- أن العذاب لا ينفع عند معاينة العذاب .

كما قال تعالى : (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ...)

وقال تعالى : (لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً) .

٣- أن الكافر لا ينظر ولا يمهل يوم القيامة للتوبة .

٤- الإعراض عن السفهاء بعد نصحهم ودعوتهم .

٥- تهديد لهؤلاء المعرضين بعذاب الله .